مدينة الفل والتجارة تغرق في طوفان المجاري

الحديدة.. المظهر العام يُدمّر.. والمحال التجارية تحت الحصار

(الحلقة الأولى)

ما لم يتوقعه أي بساط أو صاحب بوفية أو مطعم أو بقالة، في أن يصبح محاصراً في محله، لا أحد يستطيع الوصول إليه لشراء سلعة التي يحكمها عامل الزمن والرواج.. لم تكن حرباً حاصرت الناس في البيوت، لكنها طوفان المجاري الذي داهم عروس البحر الأحمر، وفردوس التجارة وترانزيت العابرين إياباً وذهاباً بين اليمن ونجد والحجاز-على البر- وبين الشرق والغرب على البحر.. هذا ما تجرعه المواطنون وأصحاب المحلات التجارية المشرعة أبوابها على كف رحمن في أحياء-"غليل" و"التعاون" و"باب مشرف" و"المطراق" و"التحرير" و"القصر الجمهوري" و"الحوك العليا والسفلى" وشوارع "جمال"، و"التنمية" و"الصبالية"، و"موسى"، و"الساحل"، و"المعدل"، و"المواصلات"، وغيرها من الحارات والأحياء والشوارع في مدينة الحديدة إحدى حواضر اليمن التجارية والاجتماعية والسياحية، خلال شهر رمضان وفي أيام عيد الفطر المبارك، فلا بحر، ولا ساحل، ولا حديقة، ولا بقالة يستطيع الأطفال من ذوي الدخل المحدود الوصول إليها.. لا مبالغة في ذلك فالصورة تعبير يفوق أي خطاب أو عبارات وهو ما وثّقته صحيفة الثورة في هذه المهمة الانسانية، لعل أحداً يستجيب.. إذ لم تعد مجدية الشكوى والخطاب والمناداة أمام صمم حكومة الوفاق الوطني- حسب تعبير أبناء محافظة الحديدة المسالمين والبعيدين كل البعد عن ثقافة التقطع والدمار-.. فما الذي حدث لأصحاب المحلات والمشاريع الصغيرة في بعض الأحياء المذكورة.. الكاميرا والكلمة هما من نقلا واقعاً كإجابة فصحى تعبر عن معاناة الحديدة مكاناً وإنساناً.. إلى سطور الحلقة الأولى من هذا التحقيق الميداني..

تحقيق وتصوير/
محمد إبراهيم - يحيى كرد

>،، صباح اليوم الثاني لوصولي الحديدة كان مفعماً بالعزيمة والإصرار على اقتحام صعاب مهمة صحفية في مدينة الفل والتجارة المغدورة بطفح المجاري، كان بجانبنا دليلنا المستنير -علي سالم مدير فرع مؤسسة الثور في الحديدة- مشمّر عن ساعديه على مقود السيارة، ومع هذا لم يتوقف لحظة عن الحديث والإشارة شارحاً واقع الحال الذي وصلت إليه الحديدة، إنه حافظ عن ظهر قلب لأوجاع المدنية التي تنام على البحر وتعجز أن تغسل أحزانها، بل يبدأ الفجر أن يشافه الشروق حسداً أن يحين وضوء الصباح على حضرة من بهاء هذه السمراء الفاتنة.. تنهدتُ ونحن نمرّ في شارع على قرب مرمى حجر من الساحل، حين أزكمتني الروائح التي أفقدتني الانسجام مع أولى خطوات هذا الاستطلاع.. لفت إلي مبتسماً: آه.. لم تر شيئاً بعد..! أشرت بالتوقف لأنزل التقط صورة.. وحين نزلت من السيارة في بقعة رغم بعدها عن طبقة المياه السوداء الآسنة والرثة، ورغم جفافها إلا أن محشر من الذباب يخيم تصادم قيامته بقدميّ.. أخذت صورة عامة وأنا أحاول أكتم انفاسي من الروائح الكريهة.. عدت إلى السيارة.. هذه هي بوابة السوق المسمى بميناء الصيد. هذا ما قاله علي سالم..

ليقرع في ذاكرتي حكايات البحار وتاريخ المدن الجميلة بجمال زرقة البحر.. ميناء الصيد رغم قربه من البحر، الذي هو ملاذ المدن الشاطئية، لغسل أدرانها بسهولة ويسر، إلا إن ذلك القرب لم يشفع لميناء الصيد أن يكون في منأى عن المجاري.. فقد صار التعايش حتمياً مع المجاري والروائح الكريهة كثبان الذباب.. هذا المكان الذي يزكم الأنوف كان هو البداية في جولتنا الاستطلاعية لنوغل بعد هذه الخطوة في ألم الناس جراحاتهم ومعاناتهم في معظم الأحياء المذكورة آنفا..

> أرباب المحال التجارية:
> سرحنا العمال وننتظر الافلاس وكثير من الكفتيريات والمطاعم أغلقت الأبواب إلى أجلٍ غير مسمى

المدينة المنكوبة

مدينة الحديدة منكوبة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. هذا ما قاله الشاب "سمير محمد عزي 27 سنة من سكان حي غليل شرق مدينة الحديدة حين سألناه عن الحديدة وكيف كانت أجواء العيد فيها.. وتنهد- أخذ نفساً عميقاً- مضيفاً: نسيم وجمال عروس البحر الأحمر الأخاذ مدينة الحديدة الذي كان يحضر إليه الآلاف من الزوار ومن مختلف المحافظات للاستمتاع به والترويح عن النفس لم يعد بمعانيه الجميلة قائما فيها، فقد حوله طفح المجاري إلى روائح كريهة نفرت زوار المحافظة وازكمت انوف ساكنيها وحولت حياتهم الى معاناة ومآس وأصبحوا معها غير قادرين على العيش بشكل طبيعي وخاصة سكان حارات "غليل" و"التعاون" و"باب مشرف" و"المطراق" و"التحرير" و"القصر الجمهوري" و"الحوك العليا والسفلى" وشوارع "جمال" والتنمية" و"الصبالية" و"موسى" و"الساحل" و"المعدل" و"المواصلات" وغيرها من الحارات والأحياء والشوارع بمدينة الحديدة الغارقة بالمجاري.

خسائر كبيرة

قبل الغوص عميقاً في معاناة المواطنين كان علينا رصد المظهر العام الأكثر تضررا المتمثل في الحركة اليومية للأعمال البسيطة والمحلات التي تقدم السلع الاستهلاكية بشكل يومي، والتي تتوقف عليها معيشة الطبقة الدنيا من المجتمع.. وأثناء تجوالنا في بعض الأحياء المتضررة من طفح المجاري لفت انتباهنا كثيراً أن المحال التجارية خصوصاً من المواد الغذائية كالبقالات وبسطات الخضار والفواكه والملاحم وغيرها تعيش وضعاً كارثياً فقد وصلت حد الإغلاق- حسب محمد الأهدل صاحب بقالة في غليل- حيث أكد أن عشرات بل مئات من البقالات في غليل والأحياء المتضررة من طفح المجاري أغلقت أبوابها حتى يتم شفط المجاري من الشوارع الغارقة، فمن الصعب أن تظل هذه المحال مفتوحة، إذ أن بعضها صار الوصول إلى أبوابها مستحيلا..

وقال الأهدل: لقد تكبدّنا الكثير من الخسائر وفقدنا الكثير من فرص العمل في مختلف المحال التجارية وقلت الحركة السياحية إلى أدنى مستوياتها .. فتصور أن مطاعم ومخابز ومقاهي وبوافي على الشوارع وأصبحت غارقة بطفح المجاري فكيف سيستطيع الناس الأكل والشراب فيها، فلا حل لأصحابها إلا الإغلاق.. فيما يؤكد المواطن عبدالحفيظ راشد من حارة غليل أن الخسائر لم تقتصر على المحال التجارية فالمواطنون تكبدوا الكثير من الخسائر أولها في دمار أساسات منازلهم ودمار بعضها إضافة إلى الخسائر المترتبة على الأضرار الصحية كالأمراض المنتشرة جراء تكاثر البعوض والذباب وغيرها من الحشرات في المجاري ومن ثم اجتياحها للمنازل ونقل الأمراض الخطيرة للأطفال والنساء مثل الملاريا وحمى الضنك والتيفود والأمراض الجلدية وصعوبة التنفس والاسهالات الحادة وامراض العيون.. وهو ما تعرض له جميع أطفالي وكلفني علاجهم أكثر من 100 ألف ريال.

بسطات الخضار والفواكه

في التحرير وتحديداً في الساحة التي جوار مستشفى العلفي توجد بسطتان للخضروات يقف أصحابها منتظرين، ولا أحد يستطيع الوصول إليها خصوصاً البسطة العائمة على الماء.. لم يكن بأيدينا عمل أي شيء خصوصاً وسائق السيارة كاد يفقد السيطرة على زمام الخروج من تلك البحيرة التي سُدّ أحد مخارجها بجسر من أحجار البولك ليوصل بين الرصيف المقابل لإحدى البسطات.. ومع هذا الجسر لا جدوى لأن يصل الزبائن، ولم يعد أحد يلتفت لهما، رغم النظام والنظافة والموقع المميز لهاتين البسطتين.. بعد أن خرجنا من البحيرة النتنة لم يعد بإمكاننا الصبر والعودة بالسيارة إلى قرب البسطات لمحادثتهم وأخذ صور شخصية لهم ، وتبقى لنا فرصة أخذ صورة من مكان بعيد..

في جولة أخرى بمفردي ولم يكن معي أحد الزملاء في فرع صحيفة الثورة بالحديدة دخلت شوارع وأزقة وحارت لا أعرف لها أسماء، ونسيت أن أسأل كل من أقابله عن اسم المكان بفعل سحر الكاميرا، واهتمامي بحفظ طريق العودة إلى حيث أقيم، كما أن خروجي من تلك الشوارع والحارات بوازع من الألم الشديد كفيل بأن ينسيني كل المسميات، لتبقى الصور الموجعة هي الأكثر التصاقاً وازعاجاً لذاكرتي كإنسان..

الحذر كمهمة أساسية

ما أسوأ أن يكون الخوف والحذر هو رفيقك في مهمة إنسانية، رددت هذه العبارة قبل مغامرة اجتياز الشارع المتهالكة أرصفته على مياه عادمة، ورغم عزيمتي إلا أني تسللت بهدوء خوفاً من الانزلاق من عَرْمٍ صغير يفصل بين الرصيف المغمور وبين أساسَ أحد البنايات الشعبية مكونة من دورين، أملي أن أعبر ذلك العرم قبل أن يفاجأني أحد الأطفال الواقفين على بُعْد خطوات فأتزحلق إلى المياه العادمة، فتدوي ضحكاتهم، حاولت الوصول بخفة إلى مجموعة أحجار تم رصفها أمام تلك البقالة، أملاً أن يأتي الزبائن- حسب صاحب البقالة- أخذت علبة ماء لأشرب ودفعت ثمنها، وحين سألته عن العمل عبس في وجهي:" أخذت ماء ؟ ما عدك تشتي ؟"، أجبت عليه بأني صحفي وأعمل استطلاعاً عن معاناة الناس.. فقال: والله ما أحد يسمعك لو تضرب بمدافع ؟ ما سمعوا القنوات عد با يقروا صحف!!!". وأضاف: "رحنا المحافظة والمجلس المحلي ورحنا كل الجهات ورجعنا إلى محلاتنا نعدّ "القواطي"-العلبْ- التي با تنتهي علينا في هذا الشهر،»لنَا محاصرين من بداية شعبنا"..

هكذا بهذه النبرة من السخط استمر حسن الضبيبي -صاحب بقالة بابها صار مطلاً على بحيرة عادمة- يشكو حاله ومآساته، مؤكدا أن المحلات الثلاثة المغلقة بجواره هي بوفية، ومطعم شعبي لجماعة من البلاد- من أبناء ريمة مديرية السلفية- أغلقوها في بداية رمضان وللآن لم يعودوا، وسيتحملون الخسائر راضين أو كارهين، فالإيجارات وفواتير الماء والكهرباء تنتظرهم..

وختم شكواه قائلاً: "هذه هي حالة بعض تجار ومحلات حارة الحوك السفلى والعليا وغليل وغيرها معظمهم فلّسوا".. لحظتها تذكرت أن عليّا السؤال عن اسم الحارة.. فأجاب: الحوك السفلى.

المسؤولية الاجتماعية

وفي لقاء ونقاش مع مدير عام الغرفة التجارية الصناعيّة بمحافظة الحديدة محمد عبد الواحد الحطامي، طرحنا عليه أسئلة محورية حول أهمية مساهمة القطاع التجاري الخاص في مواجهة هذه الكارثة كونه شريك في البناء والتجارة والأعمال المجتمعية.. والذي أكد بدوره أن البيوت التجارية التي تمثل كيان القطاع التجاري والصناعي الخاص في محافظة الحديدة، لعبت دوراً محورياً في تنمية المحافظة على مدى العقود الماضي، لافتاً إلى الاستعداد الدائم لهذه البيوت المعروفة للإسهام في أي عمل بنيوي من شأنه خدمة المصلحة العام، وفي مقدمة تلك الأعمال السعي الحثيث لحل كارثة المجاري التي قتلت معايش الناس ومطامحهم التجارية والعملية والمدنية..

> الغرفة التجارية والصناعية:
> البيوت التجارية لعبت دوراً محورياً في تنمية الحديدة ومستعدون للإسهام في حل كارثة المجاري

وأضاف الحطّامي: لك أن تنزل إلى الميدان وتسأل الناس عن البيوت التجارية ومساهمتها في مواجهة طفح المجاري فستجد أن معظم الشركات تكفلت بالشفط والمتابعة كل في أحياء معينة وأرسلت عمالها لمساعدة الناس كواجب تقتضيه المسؤولية الاجتماعية لهذه البيوت التجارية.. ولا تنسى أن أكثر الخسائر تكبدها التجار وبالذات الطبقة المتوسطة حيث أغلقت وأفلست معظم المحال التجارية في بعض الأحياء الأكثر ضرراً.. موضحاً أن طفح المجاري عرّض القطاع الخاص التجاري في الحديدة لضربات موجعة، والأكثر إيلاماً أنه جعل بيئة الأعمال مهددة بالخطر وبمزيد من التدهور..

صور مؤلمة

صورة مؤلمة جداً أن تشاهد رجلاً أربعينياً من عمال النظافة يخلع ملابسه ليغوص في المياه العادمة، وصولاً إلى أمان المنهل أو مكمن تلقي أنبوب آلة الشفط وبأنبوب المجرى.. لم أكن حاضرا لكن أحدهم التقط الصورة حصلت عليها من إدارة التخطيط والإعلام بمؤسسة موانئ البحر إذ التقطها أحد محبي النشاط المجتمعي وزملاء العمل الإعلامي والوثائقي في مؤسسة موانئ البحر الأحمر..

وفي طريقي إلى صلاة الجمعة حدثنا سائق الباص (دباب صغير) عبد الرحمن الزرنوقي إن منازل كثيرة في حي غليل تهدمت أساساتها ما حدا بي إلى التوجه إليه رغم أني قد زرت غليل وفي زيارتي لها شاهدت، ثلاثة عمال كان فيهم مهندس معماري جوار عمارة أربعة دور تقريباً، أساساتها غمرت تماما بالمياه العادمة منذ شهر والآن مهددة بالتشققات، وبدأ صاحب العمارة مشوار جديد من همّ إعادة الإعمار، الذي كان قد أنجزه طوال فترة اغترابه في المملكة العربية حسب شرح المهندس المعماري - احمد علي غلاب، الذي أكد لي أن المياه العادمة تهدد البنية التحتية والقواعد الصلبة لأساسات المنازل.. موضحاً أنّ المياه العادمة تحتوي على مواد خطيرة من الأملاح التي تدخل على مواد البناء في الأساسات وغير الأساسات فتدمر تماسكها تماماً..

الحلقة القادمة

الحلقة القادمة ستتناول قصصاً مؤلمة ومؤسفة لمعاناة المواطنين وسط حصار المجاري حيث تحولت حتمية التعايش مع واقع الطفح المرير إلى فن يبتكر من الحاجة تعاطياً مختلفاً لمواصلة الحياة، وكذلك قراءة للواقع الصحي الذي فرضته هذه البيئة الخصبة بالأمراض.